**ايمان اجداع**

**ملخص كتاب مفهوم الدولة: المقدمة والفصل السابع**

**ان اكتشاف الدولة يكون قبل اكتشاف الحرية****، ذلك ان مفهوم الحرية يطلع على شيء غير محقق في حين ان الدولة تعتبر كيان موضوعي قائم بذاته والذي تتجمع فيه مختلف أنواع السلطات. ان عدم تساؤل الناس حول مضمون الدولة غالبا ما يكون في صالح أصحاب السلطة الذين يسعون دائما الى الحفاظ عليها، لكن كثرة التساؤل عن السلطة التي تفرض علينا القوانين وتجعلنا خاضعين لكل الأوامر التي تمليها علينا تجعلنا نتساءل عن السبب الذي يجعلنا نتبع هذه القوانين، وبالتالي تقودنا هذه التساؤلات الى استنتاج ان الدولة ظاهرة إنسانية عامة حسب تعريف القانون العام.**

**ان مواجهة الدولة لنا كمواطنين تكون قائمة على أدلوجة تدعونا الى قبوله دون أي نقاش، وبالتالي فنحن نقبل وجود الدولة وضرورة الانقياد لأوامرها لأننا نعتبرها ركيزة أساسية تقوم عليها. ان تصور الحالة السابقة لظهور الدولة او حالة الكوكب قبل ظهور الانسان لا يمكنان من فهم الدولة القائمة حاليا ولا فيزيولوجية الانسان الحالي، وهذا ما يدعونا الى الانطلاق من الدولة كواقع مزامن للإنسان أي دراسة الدول منذ ظهور الانسان****، لكن هذا لا يعني ان التساؤل حول الدولة يدل على نهاية الادلوجة وبداية النظرية ذلك انه كلما كان التساؤل أعمق كلما استطعنا فهم ظاهرة الدولة أكثر، لان هذه الأسئلة تهمنا أكثر من النتائج. ان قضية الدولة دائما ما تتجدد باستمرار دون وجود جواب ثابت، وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال سعي كل جيل الى الإجابة على تساؤلاتهم وتساؤلات اسلافهم حول الدولة، وهذا يرجع الى كون ان هذه التساؤلات ترتكز على أصل و هدف الدولة مما يؤدي أيضا الى التساؤل حول تطورها و مستقبلها.**

**ان مفهوم الدولة مرتبط بشكل وثيق بالفرد والمجتمع، اذ لا يمكن الحديث عن الدولة دون ذكر الفرد و المجتمع لان هذه المفاهيم متداخلة فيما بينها بشكل يجعل التساؤل عن وظائف ووسائل الدولة مرتبط دائما بمفهوم الفرد و المجتمع، و قد تعددت سبل طرح هذه التساؤلات اذ يقوم كل باحث بدراسة هذه الإشكاليات بناءا على وجهة نظره الخاصة و التي يعتبرها الأكثر فعالية من اجل الإجابة على الإشكاليات العديدة حول مفهوم الدولة، و في هذا السياق تجدر الإشارة الى ان التفكير حول الدولة يدور حول ثلاثة محاور هي الهدف، التطور، و الوظيفة و كل واحدة من هذه المحاور تتجزأ الى محاور ثانوية تقود الى الغوص في المطلقات و اشكال الدولة المتتابعة و أيضا في كلام الاجتماعيات و الانسياء****.**

**ان الحاق القانون بهذه المحاور يمكننا من استنتاج ان الدولة تدرس حسب أربعة مناهج وهي القانون، الفلسفة، التاريخ والاجتماعيات. وتكمن أهمية هذه المناهج في كون ان حسن استغلالها من طرف المؤرخ يمكن من تحليل الواقع دون الاكتفاء فقط بالاستنتاج النظري****، مما يعني ان البحث الذي يقوم به المؤرخ غالبا ما يرتبط بالوثائق الصحيحة ويتم قبوله استنادا عليها، حتى لو عارض ذلك تحليلات الفيلسوف وأوصاف الاجتماعي. وهنا من الضروري ذكر ان لكل من الفيلسوف و الاجتماعي و المؤرخ طريقته الخاصة في صياغة السؤال، و بالتالي فكل سؤال له منهج معين و العكس صحيح.**

**ان استعمال مفهوم العقلانية مرتبط بالبيروقراطية كما يحللها ماكس فيبر، ويذكر هذا الأخير ان استعمال مفهوم العقلانية في السياسات والاجتماعيات يستوجب تذكر ان هذا المفهوم مرتبط بنمو تأثير الطبقة التجارية على الاقتصاد، التنظيم الاجتماعي، والسلوك الفردي والانفصال عن الاخلاقيات. ذلك ان الانتقال من الفلسفة الى العلم الموضوعي يقود الى الاستغناء عن الهدف الأخلاقي.**

**يعتبر النشاط البشري هو الذي يميز بين الهدف والوسيلة، فقد أدى اتساع نطاق تدخلات الانسان في الطبيعة الى بلورة مفهوم العقل وزيادة دقة مفهوم العقلانية، وهذا ما ميز تاريخ الحركة العلمية.**

**الميدان الأول الذي وظف فيه العقل لأغراض اجتماعية، هو الميدان العسكري من خلال علم الاستراتيجية والذي يعرف على انه يوظف العقل البرهاني لأغراض إنسانية. الميدان الثاني هو ميدان التجارة ومن السهل إدراك الرابط الذي يجمع التجارة بالعقلانية بحيث ان استعمال التجارة للنقد المجزأ يعتبر أصل الحساب، وهذا ما أدى الى تكون علم خاص يعنى بتطبيق الحساب على التسيير والإدارة وقد كان لهذه الظروف الاجتماعية دور أساسي في نشأة علم الاقتصاد. من خلال كل ما تم ذكره يمكننا الفهم بوضوح سبب تهافت علماء الاجتماع والسياسة على مفهوم العقلانية، وقد استفاد الغرب من القوانين العقلية البسيطة التي بني عليها علما الحساب والهندسة، مما مكن المجتمع الغربي من تطبيقها في جميع التنظيمات والمجالات.**

**ان مفهوم البيروقراطية في مجتمع ما يرمز الى تحقيق موضوعية الدولة، موضوعية القانون، موضوعية المسطرة القضائية وإمكانية التنبؤ بسلوك كل من له نفوذ. وتعتبر كلها شروط للعقلنة.**

**تعرضت نظرية فيبر حول البيروقراطية لمجموعة من الانتقادات، حيث لاحظ البعض انها ليست حافزا على العقلنة والتقدم والاقتصاد. لكن تجدر الإشارة الى ان فيبر يوضح فقط علاقة محتملة بين مفهومي العقلانية والبيروقراطية، وبالتالي فهو لا يعتبر ان البيروقراطية هي سبب تحديث المجتمع.**

**لقد تم القيام بدراسات تمهيدية حول مفهوم البيروقراطية في العالم العربي وخاصة في مصر ولبنان، حيث كان الهدف منها تقييم حداثة المجتمعيين، وقد تم الوصول الى فكرة مفادها ان البيروقراطية القائمة لا تجسد العقلانية بقدر ما تحافظ على العلاقات الموروثة، وبالتالي لا حداثة في المجتمع المصري واللبناني، لكن الحكم على البيروقراطية العربية لا يجب ان يقتصر على دراسة بلدين اذ انه من الضروري دراسة بيروقراطية كل بلد عربي مع وضع اطار علاقات قيم التقليد بقيم الحداثة. عندما نميز في الساحة العربية بين الأنظمة السياسية، فنحن نعتمد على مؤشرات ظاهرية كالدساتير والاداليج السياسية وغيرها، وبالتالي فهذا يمكننا من القيام بنمذجة الدول القائمة على أسس موضوعية.**

**لنرجع الان الى علاقة العقلانية الحديثة بمفهومي الحرية والدولة. ان نضوج الفكر السياسي في أي مجتمع يرتبط بإقامة بيروقراطية تجسد العقلانية الاجتماعية، وهذا ما يوضح أنه لا جدال في ان تحقيق المفاهيم الثلاثة في ان واحد هو امر صعب****، الا ان وضع هذه الأشياء في مر اليوم باسمرار سيعين على تغيير ممارسة السلطة وبالتالي على تغيير كيان الدولة.**

**ان الدولة الاشتراكية التي تحفز المجتمع لكي ينتج، يتقدم، وينمو لكن تتميز عن باقي الدول فقط بوفائها لمنطق التنظيمات، وهذا ما استخلصه التحليل الموضوعي. وفي هذه الحالة يصبح جهاز السلطة وسيلة قمع تستعملها جماعة معينة لتحقيق اهداف خاصة بها، وبالتالي فان البيروقراطية وسيلة قد تستعمل في صالح الحرية وقد تستعمل لفائدة القمع العنيف.**

**يدفعنا انحياز الفرد الى ذاته وابتعاده عن الكيان السياسي الى التساؤل حول طوبى العهد الحالي، وقد دفعنا ذلك الى استنتاج ان العالم العربي قد استورد الماركسية من الغرب لكن الطوبى المهيمنة على الاذهان تمثلت في الدولة العربية الكبرى، وبالتالي فقد حل في الذهن مفهوم العروبة بدل الامة.**

**يدل كل هذا على انه بوجود الطوبى تنزع الشرعية عن الدول الإقليمية، وتنفصل السلطة عن الشرع والقوة عن النفوذ الادبي، فتقوم الدولة الإقليمية بالتعليم، التشغيل والتنظيم وهذا هو مجال اجتماعيات الدولة. تؤدي هذه الدراسة الى الوصول الى مفارقة كبرى تتمثل في كون جهاز الدولة ضروري لتحقيق الوحدة، وكل عمل وحدوي يقوي البيروقراطية الإقليمية التي تتبناه لكن يفتقر الكيان الإقليمي الى ادلوجة عضوية يبرر بها وجوده.**

**من الواضح اذن ان المفارقة المذكورة لا يمكن ان تحل بمجرد الالتفات الى نظرية الدولة بعد ان طال اهمالها لأنها قائمة على الواقع ولا يمكن ان تنفك الا بهم. تكمن خلاصة تجربة دامت ثلاثة عقود، الى ان نظرة الفرد العربي للسلطة لم تنجح في تركيز الكيان القائم وتحويله الى مجتمع سياسي بالمعنى الدقيق، وفي نفس الوقت لم تفتح الطريق لإنشاء الدولة العربية الواحدة. وبهذا الصدد قد تقوي نظرية الدولة الكيان القائم بإعطائه الشرعية الضرورية لكن من المحتمل جدا ان تهدينا الى طرق واقعية لتحقيق الوحدة ومزاوجة الدولة بالحرية و العقلانية****.**